حوليات آداب عين شمس المجلد 50 (عدد يوليو – سبتمبر 2022)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

الذات المسلوبة بين
عنترة والحطيئة رؤية موازنة

اسراء طارق كامل محمد الغريري*

أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية– كلية الاداب –جامعة بغداد
desraatareq1980@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2019/5/8
تاريخ التحكيم: 2019/5/8
تاريخ قبول البحث: 2019/5/22
تاريخ النشر: 2022/9/30

المستخلص:

كان ولايزال الادب العربي بشقيه الشعري والنثري مادة ثرة بالعديد من الطروحات الأدبية والنقدية ، فقد استوعب هذا الأدب، ولاسيما شقه الشعري معظم النظريات والاتجاهات والمناهج تنظيرا وتطبيقا، ولاسيما ذلك النتاج الشعري الذي تفرد اصحابه من الشعراء برؤية خاصة، منحت نتاجهم تميزا وتفردا، وهو ما بدت ملامحه واضحة عند عنترة والحطيئة، الشاعران اللذان اقتربا في جانب من ظروفهما الاجتماعية والنفسية، وافترقا في جانب آخر منها، وهو ما ترك اثره على نتاجهما الشعري، الذي عكس في جانب كبير من جوانبه عن عقدة نفسية تمثلت بالإحساس بتعرية الذات من وجودها، بوصفها كيانا انسانيا تاما، سلبها الآخر بقسوته هذا التوجه الانساني، فكانت هذه الثيمة مصدر الهام لهما في توجههما نحو مخاطبة هذا الآخر بكل صنوفه بما ينفث عن خوالج نفسيهما سلبا وايجابا، وهو ما دفعنا الى عقد هذه الموازنة بينهما، متبعين منهجا تحليليا نفسيا لتفسير موقفيهما من هذا الآخر، وسيلتنا لذلك اشعارهما التي افصحت عن مكنونات نفسيهما ازاء هذا الآخر، وتلك الذات السليبة.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس 2022.

توطئة

ما من شك أن لطبيعة الظروف التي ينشأ في خضمها المبدعون أثرا واضحا على طبيعة نتاجهم الأدبي وعلى المستويين الموضوعيوالفني، فالعمل الأدبي استجابة لمؤثرات خاصة ناتجة عن القوى النفسية التي تعتمر ذات الأديب، فتصدر نتاجا يحمل بين كوامنه احساسا ملفتا ازاء من حوله سلبا او إيجابا، وهو ما تحدده طبيعة السلوك الفردي والمجتمعي في تفاعله مع هذا المبدع.ففي ساحة النص الأدبي تركد الرغبات المقموعة التي تأبى الاندثار وتصر على تكبيل شخصية صاحبها في الخفاء وفي تربة هذه الساحة يمكن أن نسمع حسيس المشاعر المخنوقة، ونلتقط صوتها وصورتها الجديدة بفعل القمع، حيث غدت عقدا وحصارات وارهاصات وهواجس عالقة بألفاظ وصور ورموز النص الأدبي الذي يعطيها بعض التحرر ويرويها بعض الارواء، فتنتفض متفلتة والمبدع إذ يعطيها بعض التحرر ويرويها، ثم يوردها بالإنشاد تهذيبا وتثقيفا وتلطيفا، كي ترض عنها سلطات القيم الاجتماعية والثقافية المتربصة بالانا الأعلى، فيخرج النص للعلن وقد غدا نفثة عند خروجه الى العراء يهرب ما استطاع من ذخائر الأعماق اللاشعورية للمبدع.وهذا ما يفسر اهتمام طائفة من الدارسين والباحثين في ميدان الأدب والنقد بدراسة وتحليل الجانب النفسي الذي بدت انعكاساته واضحة على نتاج هؤلاء المبدعين، ولاسيما علاقة المبدع بمحيطه سواء أكان هذا المحيط ، ظرفا، او آخرا فرديا، او مجتمعيا.ولعلنا لا نخطئ الصواب إذا قلنا:إن هذا التأثر اكثر ما يصدق على فئة الشعراء، كونهم يشعرون بما لايشعر به الناس، فهم متفوقون في احساسهم بالموجودات على من سواهم، لامتلاكهم انفعالا مرهفا و مميزا بالأشياء،وهو ما انعكس بشكل واضح على انفعالهم الشعري الذي اختلط فيه الرضا بالغضب، والسخط بالقبول، والفرح بالحزن، والمدح بالهجاء بحسب طبيعة الظرف الذي سبق هذا الانفعال ازاء الآخر الفردي و المجتمعي الذي يعيشون وسطه.وإذا ما حاولنا سبر اغوار هذه الحقيقة وجدنا أنها تصدق اكثر ما تصدق على اولئك الفئة من الشعراء الذين عانوا من عقد نفسية خاصة، بان أثرها في انفعالاتهم الشعرية، وهو انفعال يفسره طبيعة الظرف الذي عانوا ويلاته،فكانت اشعارهم تبعا لذلك صدى لخوالج مكبوتاتهم، وصرخة بوجه الواقع المؤلم تحمل بين طياتها مشاعر الغضب والألم والنقمة والثورة على ذلك الواقع الذي يشكل الآخر (فردا وقبيلة) جزءا مهما من موجوداته. وهو ما بدا أثره واضحا عند شاعرين مشهورين من شعراء العرب هما: عنترة بن شداد، والحطيئة اللذان عاشا انكسارات الواقع الأليم، وقد فُرض عليهما فرضا، فكان نتاج ذلك شعرا ينطوي على العديد من الإشارات التي تومئ الى انفعالات نفسيهما ازاء سلوك الآخر المتقلب نحوهما وفقا لمرتأياته، وهو ما ادركه الشاعران ولاسيما فيمايتعلق بقضية اثبات الذات المسلوبة، والهوية المنكرة وما يندرج تحتهما من جزئيات مثل: الهيئة، واللون، والصفات الجسدية الأخرى والتي شكلت بمجموعها الإطار العام الذي حكم سلوكهما ازاء ذلك الآخر المجتمعي فردا او جماعة.

المحور الاول: على هامش البحث(اسئلة أثارها مضمون النص الشعري للشاعرين)

إن الاستقراء المتأمل للنصوص الشعرية التي عبر الشاعران من خلالها عن قضية استغرت حياتيهما جلها وهي قضية اثبات الذات والهوية المسلوبة من قبل الآخر يثير في الذهن مجموعة من الأسئلة التي استجلبها هذا التوافق بين الشاعرين في ظروف: النشأة، والنسب، والاسم، والهيئة، وسواها، وهو تشابه افضى الى شيء من الاختلاف في السلوك صنعته طبيعة الفرص التي اتيحت لكل منهما، الأمر الذي يفسر هذا التباين في بعض ما اختاره كل منهما وسيلة لأثبات وجوده وتحديد ملامح هويته، سبيلا لانتزاع اعتراف الآخر به، وهي لعمري الغاية التي سعيا اليها وسخرا لتحقيقها كل امكانتهما الشعرية.وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا: إن النص الشعري كان الأمر الوحيد الذي امتلك الشاعران حق اختياره سبيلا للتعبير عن معانتهما، فكان هذا النص السلطة الوحيدة التي فرضا من خلالها على الآخر حق الاستماع لمعاناتهما على اقل تقدير وإن لم يحقق هذا النص الاستجابة المرجوة من نظمه لدى الآخر في معظم الأحيان، فكان هذا النص سبب استدعاء هذه الاسئلة الى الذهن من جهة، ثم عاد ليكون الوسيلة التي تجيب عن تلك الأسئلة من جهة أخرى فكانت هذه الاسئلة ابرز ما استثاره هذا النص وهي :

ــ طبيعة السلوك الذي انتهجه كلا الشاعرين سبيلا لأثبات نسبه؟ وهل حقق لهما ذلك السلوك غايتهما؟

ــ كيف أثرت الهيئة الخارجية للشاعرين على نفسية كل منهما؟ وكيف عالجا هذا الأمر ؟

ــ كيف أثرت وضاعة الاسم (وهو رمز الهوية) على نفسية كل منهما؟ وهل كانت ثمة تحولات في موقف الآخر من ذلك؟ حتى غدا اسم "عنترة" مرتبطا بالشجاعة والفروسية، في حين بقي اسم الحطيئة مدعاة للنفور والتهكم؟

ــ كيف تعامل الشاعران مع الآخر المرأة (أما، وحبيبة، وزوجة) ؟ وكيف أثر هذا الآخر في سلوكيهما ؟

ــ كيف تعامل كل منهما مع الآخر الفرد متمثلا بـــ (الأب)، و (الأخ)، و (زوج الأم) ؟

ــ ثم يأتي السؤال الأهم بعد كل ذلك وهو: هل وفق الشاعران قولا وسلوكا في أن يصلا الى مبتغاهما بإثبات ذاتيهما المهمشة وكيانهما السليب؟ أم أنهما ظلا حبيسا هذه العقدة وهذا الازدراء للذات من قبل الآخر؟ وللإجابة عن هذه الاسئلة علينا أن نقر أولا بأن وحدة المعاناة، وتماثل الهدف عند الشاعرين افضى الى خلق جو من التقارب بينهما، فقد تشابهت التجربة النفسية بينهما الى حد كبير بدءا من الاسم الذي يشكل جزءا اساسيا في تكوين الشخصية، فكلاهما يمتلك اسما له معنى دنيء، فعنترة معناه: الذباب، والحطيئة معناه: القصير، كما أن الشاعرين عاشا عقدة انكار النسب وما استتبع ذلك من ازدراء الآخر(الفرد والقبيلة) لذاتيهما المسلوبة، وهو ما فرضه عليهما انتمائهما بالنسب من ناحية الأم الى فئة الجواري والإماء، وما استتبع ذلك من نظرة دونية من قبل الآخر لهذا النسب، فالعرب كانت تأنف من الإماء والجواري ولا تعتد بمن يولد منهن من الأبناء، وتبعا لذلك فقد ذاق الشاعران مرارة الحرمان، وشظف العيش وذل الحاجة، فضلا عن اشتراكهما ببعض الصفات الجسدية مثل: دمامة الخلقة، فالحطيئة كان قصيرا دميم الملامح، وعنترة كان اسودا ورث كل صفات العبيد الجسدية عن أمه، مع الأخذ في الحسبان أنهما يعودان في الانتماء القبلي لذات القبيلة (عبس) التي مثلت الآخر المجتمعي في حياتهما، وقد انكرت عليهما ذاتهما وسلبتهما هويتهما التي كان اثبات وجودها، وانتزاع اعتراف الآخر(الفرد والقبيلة) بها غايتهما التي سخرا لها عددا غير قليل من نتاجهما الشعري، وهو ما سنحاول استكناه مضامينه في المحور اللاحق من هذا البحث، علنا نقدم دراسة تتجاوز حدود المألوف والمتعارف عليه من الدراسات التي بحث في شعر الشاعرين كلا على حدة على اختلاف اتجاهاتها ومناهجها البحثية، إذ عمدنا في هذا الموضع الى عقد موازنة تحليلية نفسية لشعر الشاعرين الذي تضمن تصريحا، او إشارة الى معاناتهما ازاء اثبات وجودهما المنكر وهويتهما المهمشة عمدا من قبل الآخر على اختلاف مكانته قربا او بعدا منهما .

المحور الثاني: الآخر وتمثلاته عند الشاعرين ويشمل:

أولا: الآخر الفرد متمثلا بـــ :(الآخر الاب، الآخر الام، الآخر الاخ ،الآخر الحبيبة والزوجة)

ثانيا: الآخر المجتمعي(القبيلة)

الآخر الفرد(الأب):

ليس من اختلاف في أن اكثر ما يشق على الفرد بوجه عام ويؤثر في ذاته انعدام الاحساس بالهوية وما يستتبع ذلك من اذلال للذات المنكوبة، وهو ما يمكن أن يصدق على الواقع الذي نشأ في خضمه (عنترة والحطيئة)، فقد عانى كلاهما من اعظم واكبر عقدة ممكن أن تواجه الإنسان بوجه عام والعربي(الرجل) بوجه خاص، وهي عقدة اثبات الهوية والنسبة للأب والعشيرة، فالأول كان معروف أنه من صلب شداد بن معاوية بن قراد العبسي، وكان هذا الأب ذا صيت وجاه معروف بين قومه و قبيلته التي كانت من اشهر واشد قبائل العرب (ديوانه).، إلا إن ذلك كله لم يشفع لعنترة كونه ولد هجينا لأمة سوداء من آل حام، و كانت العرب تأنف من اولاد الإماء، فكانوا يستعبدونهم وينكرون نسبتهم اليهم وهو ما اكده ابن قتيبة بالقول: (وكانت العرب في الجاهلية اذا كان للرجل منهم ولد من أمة استعبده)[6].

فكان هذا الواقع الأليم مصير عنترة لمدة ليست بالقليلة من حياته، فهو في نظر الآخر(الأب) عبد مقامه بين العبيد، ومن هنااحس عنترة بأن وجوده الإنساني منتقص وأن عبوديته جبال من الهموم والآلام التي تحول بينه وبين اثبات وجوده. إن التنشئة الاجتماعية التي مرت بها شخصية عنترة في جانبها اللاشعوري كانت سببا في خلق شخصيته التي احتوت على مجموعة من العقد النفسية وقد كانت: (عقدا مركبة استدعت كل واحدة منها الأخرى)[7]. فمن نسبه غير المستقر نشأت عقدة النسب، ومن اختلاط الدم العربي بالدم الحامي عن طريق امه نشأت عقدة اللون حتى عد احد ابرز اغربة العرب وهو ما عبر عنه بالقول:

إنـــّي أنا عنتـــرةُ الهَجِيـــن فـــجَّ الأنـــانِ قـــَد عَـــلا الأنيـــنِ[8]

ولأن عنترة كان يدرك في وعيه أن حاجة الأب لبسالته وقوته هي من دفعته لذلك الاعتراف، وهوما يعززه في نفس الشاعر ذلك الحوار الذي دار على عجالة بينه وبين مولاه شداد، وقد حمي وطيس الغارة والوقت يداهم عبس ورجالتها، والحاجة لرجل مثل عنترة باتت ملحة عند ذاكارغم شداد علىأن يطلب من عنترة الكر قائلا: (كر يا عنترة، فقال عنترة: العبد لا يحسن الكر،إنما يحسن الحلاب والصر، فقال: كر وانت حر، فكر وهو يقول:

أنا الهجينُ عنترهْ كلُّ امرىء يَحمي حِرَه

أسوَدَهُ وأحمرَهْ والشَّعراتِ المُشعَرَهْ

وقاتل يومئذ فأبلى واستنقذ ما كان بأيدي عدوهم من الغنيمة ، فادعاه ابوه بعد ذلك والحق به نسبه)[9].

نعم فثمن الحرية الجود بالنفس، وكانت هذه فرصة عنترة التي عليه أن يستثمرهاسبيلا لإثبات هويته للمرة الأولى منذ طفولته وحتى بلوغه سن الشباب،إنه يكر وهو يضع في حسبانه أنها كرة اثبات الذات التي طالما عانت من الاقصاء والتهميش المتعمد من قبل الآخر والذي حان وقت ابتداره بما يثلج الصدر، ويبعثه على الاعتراف بنسبة الشاعر اليه، فيخاطبه بنبرة ملؤها الحماس والتحدي لواقعه من جهة، وللآخر(الأب) من جهة أخرى قائلا :

دَعني أجِدُّ إلى العَلياءِ في الطَلبِ وَأبلُغُ الغايَةَ القُصوى مِنَ الرُتَبِ[10]

ويبدو أن طبيعة الحياة القاسية التي عاشها عنترة جعلته صريحا في مواجهة نفسه والآخر بواقع مفاده:أن اعتراف الآخر(الأب) ببنوة العبد الذي كان بالأمس القريب لا يحسن غير الحلب والصر ما كان إلا صدى لحاجة فرضتها عليه الظروف التي وقفت وللمرة الأولى الى جانب عنترة، وقد استغلها عنترة أيما استغلال سبيله لذلك الانتصارات والبطولات المتتابعة، والتي شاب غبطة وصوله اليها غصة تنكر والده لها كلما استعداه عليه احد ممن غاظهم اثبات نسبهلأبيه صراحة، وتحرره من عبوديته التي سلبته ذاته، وهو ما عاتب فيه والده عندما حرشته عليه احدى زوجات أبيه قائلا:

المَـــالُ مَالُكُـــم والعَبدُعبدُكُم فَهـــل عَذابُكَ عنَـــي اليـــومَ مَصروفُ

تَنسَى بَلائـــي إذا ما غـــارةٌ لقحت تَـــخرجُ مـــنِهـــا الطُّوالاتُ السَـــراعيـــفُ

يَخرُجنَّ مِنها وقد بُلَّت رَحائلُها بالماءِيركضُها المـــرِدُ الغـــطَاريفُ

قَد أطعنُ الطعنة النجلاءَ عن عُرضٍ تصّفرُ كفُ اخيهَا وهوَ منزوفُ

لاشكَ للمرءِ أنَّ الـــدهرَ ذو خَـــلفٍ فـــيهِ تـــفـــرقُ ذو ألـــفِومَـــألـــوفُ[11]

نعم انها غصة العبودية التي همشت ذاته باعا طويلا والتي لازالت تلقي بظلالها عليه كلما حاول نسيان آلامها، وهي معاناة استبعثها في نفسه نكران ذلك الأب وجحوده لإفضال عنترة عليه وعلى قبيلته، مما رسخ في نفس عنترة احساس الإهانة والتهميش الذي ذكاه في نفسه معايرة هذا الأب له بماضيه، كلما استعداه عليه احد من اعدائه الذين غاظهم اصراره على اثبات ذاته المسلوبة وكيانه المهمش. وشبيه عقدة الذات المسلوبة التي عانها عنترة كانت معاناة مواطنه الحطيئة الذي وقع هذا التجاهل والسلب للهوية والذات في نفسه أيما وقع وقد كان في شدته وألمه اكبر من ذلك الذي وجدناه عند عنترة، فإن كان عنترة قد ولد لأب معروف تنكر لبنوته واستخلصه عبدا يرعى ماشيته ردحا من الزمن، فقد كانت مصيبة الحطيئة اكبر وأمر فقد ولد سفاحا لأمة تدعى (الضراء) كانت لأوس بن مالك العبسي، فنشأ في حجره مغموز النسب، مما خلف في نفسه احساسا بالدونية والضآلة في وسط تتعالى فيه الاصوات بشدة معلنة تفوق ذاتها مكانة وحسبا، وهو يعاني مجهولية هذه الذات التي فرضها عليه ضياع نسبه ،فكانت نقمته على الآخر (الأب) شديدة ومؤلمة، وهو ما شف عنه ذلك الهجاء اللاذع الذي وجهه صوب هذا الرجل المجهول وهو هجاء اججه في نفسه غياب الاحساس بجدوى وجوده ذاتا وكيانا ثابت الاعراق إذ قال:

لحاكَ اللهُ ثم لحاكَ حقـــاً أباً ولحاكَ مـــن عَمٍ وخَالِ

فــنِعمَ الــشَيَخُ أنتَ لَدى المَخازِيوَبــئــسَ الــشَيَخُ أنتَ لَدى المَعالِي

جمــعتَ الــلــؤمَ لا حــيّاكَ ربــّي وأبــوابَ السَفاهةِ والظلالِ[12]

إن الحطيئة في هجائه لأبيه: " أراد أن ينقل الحقيقة كما هي دون زيف أو تشويه، كي يكون أثرها في ذهن السامع واقعيا، حيث يولد الإحساس به او الاستجابة لها، وهو الهدف الذي يحاول الشاعر أن يجسده، ويظهره للناس من خلال نقده لأهله بعد أن انتفى الواعز الأخلاقي في ذاته)[13] .لقد واجه الحطيئة الواقع بصراحة وجرأة كما هو عنترة فلم يجد ما يمنعه من الاعتراف بحقيقة مأساته بعد أن تنكر والده لوجوده، لذا فإنه يتحداه ويسخط عليه، لأن ذاته البريئة لم تعد تحتمل العذاب، والإهانة، والذل، فانطلق صوته الجريح متمردا ساخر اي صور ألم السنين التي ذاق مرارتها طفلا بريئا، أو صبيا يافعا، أوشابا محروما[14].ولاريب أن هذه الصرخة التي اطلقها الحطيئة هاجيا أباه كانت نتاج اصرار هذا الأب على تهميش ذاته والغاء وجوده، وهي صرخة ربما أراد منها الحطيئة استثارة غيرة أبيه نحو الاعتراف ببنوته له، ولكنها صرخة ذهبت على ما يبدو ادراج الرياح،فعمقت في نفسه تلك الطاقة السلبية التي ملأت نفسه فتجاوزت حدود هجاء الأب الى جلد الذات نفسها بهجاء مؤلم يشف عن مدى احساسه بالضآلة والدونية التي فرضت عليه فرضا، فأعجزته عن اثبات هويته المنكرة ووجوده المهمش وهو ما عبر عنه بالقول:

أبَت شَفتاى اليومَ إلا تَكلُماً بشرٍ فمَا أدري لِمن أنا قائِلهْ

أرى لــِي وَجــهاً شوَّه اللهُ خَلقهُ فــقُــبِّح مِــن وجــهٍ وقــُبــِّح حَــامِلُهُ[15]

وقوله:

لا أحدَ ألأمَ من حُطيئة هجَا البَنينَ وهجَا المريئة[16]

إن صورة الأب المعتادة لدى الأبناء والتي تحمل بين ملامحها رمزية الاحساس بالفخر والعزة، لكونهم ولدوا من صلب هذا الأب الذي يمثل وجوده في حياة الأبناء رمزا من رموز الأمان والاطمئنان، وقد انعكس بذاته وكيانه على ذات وكيان ابنائه وبالتالي وجودهم، وهو ما افتقده عنترة والحطيئة في ذلك الأب الذي بدا في حياتهما رمزا من رموز التهميش والإقصاء للذات والهوية، فكان عامل تثبيط ومصدر بؤس وشقاء لكليهما.

الآخر (الأم)

قبل الكلام عن الآخر الأم في حياة عنترة والحطيئة، لابد لنا من بيان مكانة الأم عند الفرد العربي عامة، فالأصل في العصبية القبلية عند العرب الأبوة أو الانتساب الى الأب مثل سائر الأمم الراقية، على أن الأمومةكان لها شأن كبير عندهم، وكثيرا ما كانت المزاوجة والمصاهرة سبباً كبيراً للعصبية. ليس ذلك لعلو منزلةالمرأةفقط، وإنما الفضل فيه للأمومة، فإن المرأة تعلومنزلتها وتشتد عرى الاتحاد بها عندما تغدو أما[17]وقد عانى عنترة والحطيئة من ضعة النسب من جهة الأم، فعنترة كان ابن أمة سوداء تدعى (زبيبة) يملكها شداد بن قراد العبسي، وقد ولد منها عنترة الذي حمل سمات أمه في سواد البشرة، وغلاظة الهيئة ومن واقع هذه النظرة بأنه ابن الأمة السوداء، فقد عاش عنترة حياة تعسة،لأن أمه تنتمي الى الطبقة الثالثة من النساء في المجتمع العربي بعد طبقة الحرائر وطبقة السبايا، فالسبية كانت وقفا على رجل واحد،أما الأمة فقد كانت مشاعة بين الرجال[18].كانت هيئة عنترة ولونه مغايرا لبقية اقرانه في ضخامة خلقته، وعبوس وجهه، وتلفلف شعره، وكبر شدقيه وصلابة عظامه، وشدة منكبيه، وطول قامته، وشبه خلقته لأبيه شداد[19].وهو كذلك من الشعراء الأغربة الذين تسرب اليهم السواد من امهاتهم الإماء، والذين هم في الوقت نفسه لم يعترف بهم آبائهم، او أنهم اعترفوا بهم على ضيق منهم، وهناك اجماع على أن اسوء الهجناء حظا واوضعهم منزلة اجتماعية كان هؤلاء الذين تسرب اليهم السواد من امهاتهم، فقد كانوا سبة يعير بها اباؤهم ومرد ذلك من غير شك الى ظاهرة اللون، فقد كان العرب يبغضون اللون الأسود بقدر ما يحبون اللون الأبيض[20]. اضف الى ذلك كله إن العرب ميزت هذا النوع من الهجناء

بكلمة الأغربة، تشبيها لهم بالطائرالبغيض المشئوم في لونه الأسود الذي: " يثير الحزن والتشاؤم والخوف من المجهول،لارتباطه بأشياء منفرة في الطبيعة دون سائر الالوان، فهو مرتبط بالليل والظلام، والزفت، والسخام، والسباب، والرماد المتخلف عن الحريق)[21].وبعد كل هذه الحقائق التي سادت المجتمع الذي عاش في خضمه عنترة وترعرع يتضح بشكل لا يقبل الشك مدى الألم والمعاناة التي عانها، نتيجة هذا الواقع الذي فرض عليه، وعاش بين ثناياه منكر الهوية مسلوب الارادة، فهو ضحية تقاليد وعادات فرضها عليه آخره الفردي والمجتمعي، ولعل حقيقة انتسابه (لأم) سوداء اورثته لون بشرتها من جهة ورجوعه بالعصب الى (أب) معروف بين قومه بالسيادة والوجاهة هي التي جعلته يعيش النقيضين ذلك أن اعتراف ابيه ببنوته لم يحل دون مناداته بابن زبيبة، اذا ما تناسى القوم فضائله وبسالته، وبابن السادة الكرام اذا ما دعتهم الحاجة لفروسيته وبطولته:

ينادُونني في السِّلم يا بْنَ زَبيبة ٍ وعندَ صدام الخيل يا ابنَ الأطايبِ[22]

ويبدو أن ضآلة نسبه من جهة أمه هي العقدة التي اوقعته وقومه في هذا التناقض ازاء الاعتراف بهويته ووجوده، فالعرب يشق عليها ان تعتد بغير اولاد الحرائر ولاسيما فرسانها عضيدي النسب، لذا نرى قومه يترددون في منحه مكانة مرموقة بينهم وهو ما بدا واضحا في مناداتهم له بين الحين والآخر بابن زبيبة وهذا تحديدا في اوقات السلم، وابن الأطايب اذا ما حمي الوطيس.وهويحاول التعامل مع هذه العقدة وافرازاتها الفردية والمجتمعية بأن يجعل من همته وشجاعته المعادل الموضوعي لعقدة حياته (أمه ولونه) قائلا:

مَا سَاءنِي لوني واسمُزَبيبةٍ إذا قَصرت عَن همَتِي أعدائِي[23]

لقد قرن عنترة معاناته ازاء سلب الهوية ونكران الذات بأمه هذا الآخر الذي اورثه صفات العبودية ولاسيما سواد البشرة ودمامة الخلقة حتى غدت أمه الملخص الضمني لمعاناته ازاء الاقصاء والتهميش وهو لعمري تلخيص جامع مانع لتلك المعاناة اذ قال واصفا ضمنا طبيعة الهيئة التي ورثها عن أمه عندما نعتها بسوداء الجبين قائلا:

وَأنا اِبنُ سَوداءِ الجَبينِ كَأنَّه ضَبُعٌ تَرَعرَعَ في رُسومِ المَنزلِ

الساقُ مِنها مِثلُ سَاقِ نَعامَةٍ وَالشَعرُ مِنها مِثل حَب الفُلفُلِ

وَالثَغرُ مِن تَحتِ اللِثامِ كَأنَّهُ بَرقٌ تَلألأ في الظَلامِ المُسدَلِ[24]

ويبدو أن نقمة عنترة على واقع (أمه) ذلك الآخر الذي مثل وجوده عامل سلب في حياته، هو الذي جعله يصفها بهذا الوصف المؤلم، وهو وصف لاشك نابع من حقيقة الواقع الذي رأى عليه أمه وعاشه معها، فقد وصفها بسواد الجبين قاصدا ذلك، لأن الغرة والجبين مرتبطتان دائما بالعلو والرفعة كونهما اشرف مكان في الوجه غير أن المفارقة التي فرضت واقعها على عنترة هي تحول رمزية هذا الموضع من الوجه الى النقيض تماما، فوصفه لجبينها بالسواد إيماءة ضمنية الى ذلة مكانتها بين الأمهات، فقد عاشت مهمشةتخفي رأسها من ذل العبودية وعارها،وخوفها من الواقع الذي تعيشه، وهو بعد ذلك يشبهها بالضبع الذي ترعرع في رسوم المنازل، ويبدو أن توظيفه للضبع هنا كان مقصودا، لما يتصف به هذا الحيوان من دناءة وهو هنا يجسد النظرة الدنيئة للآخر(الأم)، ثم توظيفهلساق النعامة كدلالة على ضعفها، وركضها الدائم للقيام بخدمة سيدها دون استياءــ او كلل وهي قد تخفي رأسها في التراب، لتخفي حقيقة كونها أمة.لقد ظلت عقدة اللون الشغل الشاغل لعنترة، كونها رمز عبوديته وسبب ازدراء الآخر لوجوده وهويته، لذا نجده يحاول بين الحين والآخر تسلية نفسه عن تلك العقدة ولعل ذلك ما جعله يستدرك في الوصف على قتامة الصورة التي قدمها لآخره (الام) باستعمالهاللون المضاد للسواد (البرق المتلألئ) فلون البرق يشع وسط سواد الغيمة الداكنة التي تحيل ذلك السواد إلى لوحة فنية رائعة، تبعث الراحة النفسية للشاعر عند رؤيته لكل ذلك الظلام المسدل على حياة أمه، فاللون الأبيض هو اللون المغاير للون الأسود الذي عبر به الشاعر عن عقدته الاساسية، ويبدو أن لهذا الأمر اسبابه التي تصب في إطار رغبته بتجميل صورة أمه السوداء، مختبئا خلف تلك الصورة، من اجل التغطية على لونها الأسود، او أنه اراد تسلية نفسه

عن هذا الواقع الذي خلف في نفسه عقدة جعلته يكثر من استعمال الــ (انا) في شعره[25].ثم يعود ليسلي نفسه عن خذلان الآخر (الام) له بأن يتغنى بفروسيته ويقرن ضعة نسبه لأمه بشرف وعلو مكانته بين الفوارس قائلا:

فإن تكُأمي غَرابَّيةٌ من آل حَـــامٍ بـــِها عَـــبتَني

فإنّي لطيفٌ ببيضِالظُبَا وسمرُ العَوالي إذا جِئتني

ولَولا فرارُكَ يومَ الوغَى لقُدتُكَ في الحَربِ او قُدتنِي[26]

ولاشك أن لجوء عنترة الى الجمل الشرطية المبدوءة بـــ(ان) دليل حزنهالعميق الذي انبث في ثنايا ذاته عندما عيروه بأنه من الأغربة، لأنه ورث السواد من امه[27].وهو ما فتئ يذكر قومه بأنه وهم ايضا يعودون بالنسب الى آل ونسله، وهو ابن نوح عليه السلام وقد كان اسود اللون، وأورث قسم من سكان الأرض هذه الصفة الجسدية، وهي سواد اللون وضخامة البنية، وتحمل المشاق، وقبح الوجه، وخشونة الشعر،في إشارة واضحة منه الى أن قبيلته تنتهي بالنسب الى قوم حام ومنهم أمه وأبيه وهو ما عبر عنه قائلا:

يقدِمهُ فَتىً مِن خيرِ عَبسٍ أبوهُ وأُمهُ مِن آلِ حَامِ(28)

وقوله :

إنّ عَابت سَوادِي فَهُو فَخرِي لأنّي فَارسٌ مِن نَسلِ حَامِ(29)ِ

لقد كان لتجاهل كل من صادفهم عنترة في حياته وجمعته بهم المواقف والصراعات نداءاته المتكررة بشأن احقيته بعلو المنزلة وشرف المكانة الذي يستتبع اعترافهم بذاته المسلوبة اثره العميق في نفسه لذا نراه كثيرا ما يقابل غصة دناءة النظرة اليه بشجاعته وفروسيته التي لا يشق لها غبار وبنبل خصائله وعظيم فضائله التي رأى انها من المفترض أن تكفيه مهمة الدفاع كيانه ووجوده.

ويعيبُونَلَونِي بالسَوادِ جَهالَةً ولا سَواد الليلِ مَا طَلعَ القمرُ

وإنّ كانَ لَونِي أسودَ فَخصَائِلِي بَياضٌ ومَن كَفِي يُستَنزلُ القَطرُ[30]

ويبدو أن هذا الفخر المصطنع من قبل عنترة هو في حقيقة ذاته واجهة لخذلان الذات الذي فرضته عليه مكانة (أمه) بين المجتمع واستقرار هذه المكانة بوراثته لصفاتها الشكلية وفي مقدمتها اللون الذي شكل عقدة حياته فيطالعنا قائلا :

لَئنْ يَعيبُوا سَوادِي فَهو لِي نَسبٌ يَومَ النِزالِ إذا مَا فَاتنِي النَسبُ[31]

وهو بعد ذلك كله يحاول ما استطاع ان يجمل صورته بين آخره المجتمعي، متخذا من هذا السواد ثيمة يفتخر بها وكأنها علامة فارقة تميزه عمن سواه من الفوارس لابل إن الرائحة التي تنبعث من العبد والتي تنفر الآخرين منه غدت مسكا يزين هذا اللون ويملأ نفسه التي أنفت الفحشاء قائلا:

لئن أكُ أسوداً فالمِسكُ لَونّي ومَا لِسوادِ جِلدِي مِنْ دَواءِ

ولَكِنْ تَبْعُدُ الفَحْشاءُ عَنّي كَبُعْدِ الأرْضِ عَنْ جوِّ السَّماءِ[32]

وعلى الضفة الأخرى يطالعنا الحطيئة وقد عانى ما عاناه عنترة من وجود سلبي للآخر (الأم) في حياته بل واجه واقعا اكثر مرارة واشد قسوة من الذي واجهه عنترة في هذا الشأن، فقد ولد لجارية تدعى (الضراء) وقد عرفت بتهتكها، فقد كانت أمة لأوس بن مالك العبسي، فأعلقها الحطيئة ورحل عنها، وقد نشأ الحطيئة في حجره مغموز النسب كما يروي الاصفهاني[33].فعاش يعاني مرارة الاحساس بالمهانة، وذل الناس واحتقارهم له،لكونه مجهول النسبة، ولأنه ولد سفاحا كما يقول ابن الكلبي : **(كانمنأولادالزناالذينشرفوا)**[34].الأمر الذي دعاه الى أن يصب جم غضبه على أمه التي اورثته واقعا لاذنب له فيه وقد هجاها في غير موضع من شعره بأشد انواع الهجاء من ذلكقوله:

تَنحي فَاجلسِي مِنّا بَعِيداً أراحَ اللهُ مِنكِ العَالمِينا
أغرِبالاً إذا استُودعتِ سِراً وكَانُوناً علَى المُتحدثِينَا
ألـــم أوضح لكِ البَغضاءَ مِنّي ولكنّ لا أخَالكِ تعقِلِينَا [35]
جَزاكِ الله شراً مِن عَجوزٍ ولقاكِ العقوقَ مِن البنِينَا
فَقد سَوستِأمرَ بَنيكِ حَتى تَركتِهم أدقَ مِن الطَحينَا
لِسَانُـــكِ مُبردٍ لم يبقِ شيئًا ودُرُكِ درّ جَاذبة دهينَا
وإنّ تخلِي وأمركِ لاتصونِي بمشتدِقواه ولا متينا[36]

إن حرقة الألم ومرارة ما يعانيه الحطيئة بادية في هذه الأبيات التي اودعها اشد اساليب النقمة على والدته فهو يرفض وجودها في حياته ويطالبها بالتنحي بعيدا عنه (في إشارة لرفضه للواقع الذي فرضته عليه) ويدعو الله بأن يريح منها الناس بالموت، الذي يدرك في ذاته انه لن يصلح من واقعه شيئا ، فقد فعلت فعلتها التي اورثته ذل الامتهان للذات بين الناس، وحملته ذنب خطيئة لا يد له فيها،وقد زاد هذا الوقع سوءا في نفسه اصرارها على تلك الخطيئة بإخفاء حقيقة والده عنه، الأمر الذي يفسر طبيعة سلوكه السلبي ازاءها وازاء المجتمع الذي حمله وزر افعالها، ولو أخذ هذا الآخر فردا او جماعة هذا الأمر بالحسبان لغدا ميزان التفاعل بينه وبين الحطيئة عادلا، فعلى الجانب الآخر من شخصية الحطيئة نجد اصرارا والحاحا من قبله على معرفة نسبه ووالده الحقيقي، مما يشف عن جانب الغيرة الحرة على ذاته وهويته التي سلبته اياها افعال والدته معه تحديدا واصرارها على عدم اخباره بذلك مما يفسر غضبته الحانقة عليها والتي ترجمها دعاء بالموت عليها وعلى من هن على شاكلتها. وربما كان هذا الدعاء اشد وقعا من السباب،لأنه يدل على الاحتقار والزراية: (فالشاعر كما يعبر عن نقمته الشديدة بألفاظ ومعاني يسيرة واقعية، لكنها في الآن ذاته، عميقة الدلالة على ذلك الاسوداد الذي ما برح يطبق على نفسه، باعثا فيه الشعور بالوزر والنقمة)[37].والحطيئة يصف أمه بأبشع الصفات التي إن سمعها أي متلق استجلب له العذر، فهي تختتل لأسرار الناس ثم تبوح بها مثلها مثل الغربال الذي لا يحفظ ما بداخله من اشياء، لذا فإن الدعاء عليها بالموت والعقوق من قبل أبنائها اقل ما يمكن مجازاتها به، فموت السيئين امثالها باعث للمسرة عند الناس وحياتها مدعاة للبؤس والسوء عندهم. لقد تشكلت تجربة الحطيئة الشعرية من محنة الحياة، وألوانها القاتمة، فكان يجوب الصحراء متمعنا في عواصفها و وتقلباتها، وحرها وقرها، ويصنع من وراء ذلك عالما من الأشياء يستطيع أن يعبر من خلاله عن مكبوتاته النفسية التي خلفها عدم اكتراث الآخر القريب له (الأم) فهي في ذاته المسلوبة وهويته المنكوبة بمجهولية الانتماء، احد ابرز ملامح تجربة البؤس والشقاء التي عاشها طوال حياته[38].وقد بدت قسوتها عليه اشد ما بدت عندما ضيعت نسبه بين الرجال الذين عرفتهم وقد الصقتهم جميعا به وهو ما وصفه قائلا:

تَقولُ ليَّ الضَراءُ لَستَ لِواحدٍ ولا لأثنين فَانظُر كَيفَ شَرَك أولائِكَا
وأنتَ امرؤٌ تَبغِي أبًا قد ظَللتهُ هبلت ألمَا تَستفق مِن ضَلالِكا[39]

إن اول ما يلفت الانتباه في هذا النص الحواري هو ذكره لأمه باسمها(تقول لي الضراء) مما يشف عن عمق الفجوة بينه وبينها من جهة، وعن أنفته من أن يصفها بوصف الأمومة، لأنها حرمته ابسط حقوقه عليها واهمها حق النسب لرجل بعينه من جهة أخرى. بل إنها تمادت الى الحد الذي جعلها تجابه الحاحه في طلب معرفة أبيه بالسخرية والتهكم لا بل ورميه بالخبل وهذا دليل قسوتها عليه وعدم تقديرها لحجم الالم الذي يعانيه وهي من يفترض أن تكون آخره القريب الى نفسه وهذا من طبيعة الأمومة في كل زمان ومكان. ويبدو هذا الموقف من قبل الحطيئة مقبولا اذا ما علمنا إن الدراسات النفسية الحديثة اثبتت أن التعلق حاجة اساس من حاجات النمو، وهي حاجة قائمة بذاتها ومستقلة عن الحاجات الأخرى ويتطور بمعزل عن اشباع الحاجات الفسيولوجية الأخرى، فهو دافع اولي كغيره من الدوافع يتمتع بوظيفة بيولوجية نفسية مهمة تمكن الطفل من النمو نموا سويا من الناحية البيولوجية والاجتماعية والعاطفية، وتمكن الام من تحقيق ذاتها عبر ممارسة الأمومة[40].

الآخر (الأخ):

يقف الشاعران موقفا متباينا في تعاملاهما مع الآخر (الاخ) وهو تباين فرضته طبيعة الظروف التي احاطت بكل منهما من جهة وسلوك ذلك الاخر الاخ تجاه كل منهما من جهة اخرى، فقد كانت العلاقة بين عنترة واخوته لأمه يحكمها وحدة الشعور بالتهميش، ونبذ الذات من قبل الآخر الفردي والمجتمعي، الامر الذي ذكى في نفسه شعورا بالتوحد والتماهي مع اولئك الاخوة الذين كانوا رفقاء البؤس والاقصاء بالأمس وهم رفقائه اليوم في رحلة اثبات الذات المسلوبة اذ يخاطبهم ببني زبيبة قائلا:

أَبَني زَبيبَةَ ما لِمُهرِكُمُ مُتَخَدِّداً وَبُطونُكُم عُجرُ
أَلكُم بِآلاءِ الوَشيجِ إذا مَرَّ الشِياهُ بِوَقعِهِ خَبرُ
إذ لا تَزالُ لَكُم مُغَرغَرَةٌ تَغلي وَأعلى لَونِها صَهرُ
لَمّا غَدَوا وَغَدَت سَطيحَتُهُم مَلأى وَبَطنُ جَوادِهِم صِفرُ[41]

وهذه القصيدة قالها عنترة حبا في أن يدعيهم قومه وكان لهم مهر يعاب، فأمر اخا له كان خيرهم في نفسه، فقال: اروي مهرك من اللبن، ثم مر به عشية على بريخ، فاذا قلت لك: ما شأن مهركم متخددا ضامرا، فاضرب بطنه بالسيف، كأنك غضبت مما قلت لك، فمروا عليه، فقال عنترة: ما شأن مهركم قد ضمر، وانتم قد بطنتم أي كبرت بطونكم، فأهوى اخوه الى بطن الفرس فضربه بالسيف فظهر اللبن[42]. اما الحطيئة فلم يكن على وفاق مع اخويه لأمه، ومرد ذلك يعود الى أمه نفسها التي منحتهم ما لم تمنحه للحطيئة من ثبات النسب وبيان الهوية، فهم ولدوا لأب معروف على العكس منه هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن هذين الأخوين أنفا من الحطيئة واسهما في تعميق عقدة النسب لديه، بإنكارهما لأخوته لهما، فضلا عن غبنهما إياه في الحصول على ماله الذي لأمه من جهة أخرى، فتوجه اليهما بهجاء مسخهما مسخا قائلا:

لا يجمعا مَالي و عرضِي باطلًا كالعمر أبيكمَا الحباق
وكِلاكُما جَرت جعاريرُ جليه نشين بينَ مشيمة وملاق[43]

فهو يقول مخاطبا أخويه : إنكما إذا ما حاولتما أن تستأثرا لميراثي و أن تمنعا عني نسبكما الذي أحفظ به عرضي فإن ذلك لا يجديكما ،لأن أباكما حقير ،ذليل ،شديد نتن الريح ، ويبدو حقده عليهما شديدا في البيت الثاني عندما شبه ولادتهما بولادة البهائم التي تجذب بأرجلها، وكأنه يشير ضمنا الى أنهما يشاركانه لحظة السوء التي ولد فيها لذات الأم، وهي صورة قدمها الحطيئة وقد ترك العنان لخياله، ليأتي بأبشع الصور التي يمكن أن تمكنه من الانتقاص من اخويه، وقد وطدهذه المجافاة بينهم احساس البغض الذي ملك نفس الحطيئة وشعوره بالغبن، لأنهما نعما بقسمته من الحياة وقسيا عليه، وهمشا وجوده، وقد لجأ اليهما اكثر من مرة، ليعيناه على مواجهة واقعه وبؤسه وفقره، فكان نتاج ذلك كله هجاء لاذعا مثل ردة الفعل التي لجأ اليها بوصفه اخا مهمش الذات مسلوب الارادة. و يمكن أن ننسب مثل هذا الهجاء لأخويه إلى نوع من أنواع الهجاء و هو الهجاء الفاحش الذي يتناول الأعراض و هو أقرب إلى التساب واقل درجة من الهجاء يسلب الصفات الكريمة، و إن كان سببا موجعا و مؤلما[44].وهو بعد ذلك يتمادى في حقده وبغضه ليصل الى زوج أمه الذي لم يسلم هو الاخر من نقمته فهجاه وأمه قائلا:

و لقد رأيتُكِ في النساءِ فَسؤتنِي وأبَا بنيكِ فَسَاءنِي في المَجلسِ
إنَّ التذليلَ لِمَن تزورُ ركابُهُ رهطَابنَ جحشٍ في مَضيقِ المَحبسِ
لايَصبرونَ ولا تَزالُ نِسَاؤهُم تَشكو الهَوانَ الى البَئيسِ الأبئَسِ[45]

وهذا الهجاء بكل صوره المقذعة ينبئ عن أنه كان ذا عصب كريه، يشحذ خياله بالصور المنكرة التي قلما تتيسر لسواه، والفن في الواقع ليس سوى ذلك الخيال الذي يتحد اتحادا حيا بالعصب، فيتولد من اتحادهما صورة لا قبل للإنسان العادي بها[46] .ويبدو هجاء الحطيئة لأخويه مقبولا اذا ما حللناه لوجهة نظر نفسية، فقد اشار ماكورد ورفاقه الى حقيقة أن الصبيان الذين ينشأون وهم يعتمدون على الآخرين بشكل مفرط، تكون علاقتهم مع الأم قلقة، مع شعور من قبلهم بالدونية

والخوف، ولاسيما اولئك الذين يعانون من رفض ونبذ من قبل اهلهم، ومن المقارنة المجحفة بينهم وبين اخوانهم، وهم في الجانب السلبي واخوانهم موضوع المقارنة في الجانب الإيجابي، فقد لاحظ هؤلاء الباحثون أن العلاقة العائلية بين هؤلاء الأخوة تتسم بالمشاجرة[47].ويبدوان نقمة الحطيئة على اهله كانت امتدادا لنقمته على واقعه الذي لم يستطع التحرر منه، فعاش حالة دائمة من الكره، غدا معها محشوا بالصور المشوهة والماسخة التي عززها في مخيلته نكران ذويه لذاته وتهميشهم لوجوده، فقد استأثر جميع هؤلاء بقسمتهم الطبيعية من الحياة تاركين الحطيئة لقسمته التي كانوا جزءا من مأساتها [48].ويبدو ان ترفع اخويه عن الاعتراف بأخوته لهما يعود الى طبيعة العربي البدوي في ميله لمن هو ينتمي اليهم بالعصب من جهة (الأب) لا (الأم) التي يعد الانتساب اليها دونما الأب عارا وسبة على صاحبها كما هو الحال مع الحطيئة وهذه طبيعة لا يمكن ان نعدل او نغير فيها شيء او يغير منها الحطيئة، فالعصبية تجعل الانسان:(يرى ما يحب أن يرى فقط،ولا يرى ما لا يحب أن يرى، فهو يعمي و يصم و يشوه إدراك الواقع،و يهيئ الفرد أو الجماعة للشعور و التفكير، والإدراكو السلوك بطرق تتفق مع اتجاه التعصب)[49]

<u>الآخر (الحبيبة، الزوجة)</u>

لعل اشق ما على الانسان مواجهته في الحياة انتمائه لماض أليم ليس له يد في صنعه، على الرغم من محاولته صنع حاضر ينافي هذا الماضي ويقفز عليه وعلى سلبياته وهو ما عاناه عنترة والحطيئة، فعنترة عبد الامس وفارس اليوم لم يستطع مع كل ما ابداه من مودة لعبلة ان يحظى بقبولها ومودتها، فهي بوصفها الآخر (الحبيب) بالنسبة له لم تستطع تجاوز سلبيات ذلك الماضي كما انها لم تتقبل سواده ودمامة خلقته شأنها في ذلك شأن ذوي قرابته الذين همشوا ذاته وسلبوه الاحساس بالانتماء اليهم، فهي لا تتوانى عن معايرته بسواد بشرته ودمامة خلقته متناسية كغيرها فضائله وشمائله وهو ما ادركه عنترة قائلا:

حَسَناتي عِندَ الزَمانِ ذُنوبُ وَفَعالي مَذَمَّةٌ وَعُيوبُ

وَنَصيبي مِنَ الحَبيبِ بِعادٌ . وَلِغَيري الدُنُوُّ مِنهُ نَصيب

كُلُّ يَومٍ يُبري السُقامَ مُحِبٌّ . مِن حَبيبٍ وَما لِسُقمي طَبيبُ

فَكَأَنَّ الزَمانَ يَهــوى حَبيــباً وَكَأَنّي عَلى الزَمانِ رَقيب
إِنَّ طَيفَ الخَيالِ يا عَبلَ يَشفي وَيُداوى بِهِ فُــؤادي الكَئيبُ
وَهَلاكي في الحُبِّ أَهوَنُ عِندي مِن حَياتي إِذا جَفاني الحَبيبُ
يا نَسيمَ الحِجــازِ لــولاكِ تَطفــا نارُ قَلبي أَذابَ جِسمي اللَهيبُ[50]

وهو لا يملك من ادوات اثبات الذات الا قصص بطولاته فيخاطب، بها الآخر الحبيب، عله يرق ويلبي حاجة الذات السليبة من العاطفة التي يتوق لها كل رجل اشباعا لغريزته فيقول:

عَجِبَت عُبَيلَةُ مِن فَتــىً مُتَبَذِّلِ عاري الأَشاجِعِ شاحِبٍ كَالمُنصُلِ
شَعثِ المَفارِقِ مُنهَجِ سِربالُهُ لَم يَدّهِن حَولاً وَلَم يَتَرَجَّلِ
لا يَكتَسي إِلّا الحَديدَ إِذا اِكتَسى وَكَذاكَ كُلُّ مُغاورٍ مُستَبسِلِ
قَد طالَما لَبِسَ الحَديدَ فَإِنَم صَدَأُ الحَديدِ بِجِلدِهِ لَم يُغسَلِ
فَتَضاحَكَت عَجَباً وَقالَت يا فَتى لا خَيرَ فيــكَ كَأَنَّها لَم تَحفِلِ
فَعَجِبتُ مِنها حينَ زَلَّت عَينه عَــن ماجِدٍ طَلــقِ اليَدَينِ شَمَردَلِ
لا تَصرِميني يا عُبَيلَ وَراجِعي فِيَّ البَصيرَةَ نَظرَةَ المُتَأَمِلِ

فَلَرُبَّ أملَحَ مِنكِ دَلّاً فَاِعلَمي أقَـــرَّ في الدُنيا لِعَينِ المُجتَلـــي[51] أما الحطيئة فقد كانت مسألة زواجه وانجابه العديد من الابناء وعجزه عن توفير احتياجاتهم باعثا من بواعث تعزيز الشعور بمظلومية الذات لديه فهو ليس كباقي الاباء يورث ابنائه نسبا عريقا ولا حتى عاديا وهو ايضا لا يمتلك من الصفات الجسمية ما يؤهله لأن يعمل عملا يعينهم على شظف العيش، فقد عرف عنه دمامة الخلقة، وقصر القامة حتى أن لقبه الحطيئة كان مستوحى من هيئته تلك، وقد بان أثر هذا التقصير من جانبه واضحا على ردة فعل زوجته التي كانت دائمة الشكوى من الفقر والعوز حتى توجه اليها كعادته هاجيا:

أطوفُ ما اطوفُ ثمآوي الى بيتٍ قعيدتهُ لكاع[52]

فهي امرأةلئيمة في نظره قعيدة البيت لاهم لها سوى معاتبته على سوء عشرته.لم يعرف للحطيئة حبيبة او امرأة تعشقه ويعشقها، فهي خيال يجول في فكره إذا ما اراد الشكوى من صروف الدهر وقسوته عليه وكان يستعير لها اسم(أمامة) :

ولَما أنّ دعوتُأخِي بَغيضًا أتَانِي حيث أُسمِعهُ الدُعـــاءُ
وقَد قَالت أُمَامَةُ هل تَعزى فقلتُ أميمُ قَد غَلبَ العزاءُ
اذا مَا العينُ فاضَ الدَمعُ مِنها اقُولُ بِها قَذى وَهوَ البُكاءُ [53]

إن امامة هي الآخر الحبيب الذي جعل له من مخيلته مكان، وهي على ما يبدو ذلك الخيال الذي يأتي اليه كلما ألمت به ملمة او أهمه هم، وهي الوحيدة التي استأثرت بحب الحطيئة ومودته، فهي نسج من الخيال الذي لا يمت للواقع بصلة، لذا فهو متفاعل معها ومستجيب لها في كل ما تعاتبه عليه وسيلته لذلك الحوار الذي ينفث من خلاله عن مكبوتاته التي أهمته، والتي تحاول (أميم) كما يحلو له أن يناديها احيانا تعزيته عنها وتصبيره على ملماتها، فهي روح نسجت من روحه، وآخرًا اقر بذاته، وبوجوده كيانا وروحا، وهوية.
ولأجل ذلك كله استحقت حلاوة الوصف وجميل المناداة :

طافت أمامة بالركبان آونة يا حسنة من قوام ومنقبا[54]

<u>الآخر المجتمعي(القبيلة) وعلاقته بالذات المسلوبة ـــ</u>

يشكل المجتمع (القبيلة) الذي يعيش في وسطه الفرد جزءا لا يتجزأ من هويته، وهو علة ارتباطه بذلك المجتمع وتلك القبيلة، فإن أحس بغبن عشيرته لذاته، وانكارها لهويته عاش يصارع شعور الضآلة، وعدم القدرة على تحقيق الذات المجتمعي، وصولا لاستكمال انسانيته التي سلبه الآخر المجتمعي مقومات وجودها، وهو ما يفسر لنا ذلك الشعور الذي ملك على الشاعرين ذاتيهما، ومكمنه فقدان الاحساس بالهوية العشائرية والقبلية وصولا الى ترسخ شعورهما بالانتماء القومي إن جاز التعبير وهو ما حاولا تجاوزه دون جدوى، لا لشيء إلا لأن المجتمعي الآخر رسخ في عمقه ضآلة مكانتهما ذاتا وهوية.فهذا عنترة يحاول ما يحاوله في مختلف المناسبات، لأثبات أنه جزء من هذا المجتمع في كيانه وذاته وأنه يعود بالهوية الى عبس التي ما فتيء سراتها ينكرون عليه ذاته فيعيرونه بعبوديته، وبزبيبته، وبسواد بشرته، الأمر الذي جعل همه الأول مفاخرتهم،فلإن كان عاجزا عن مجاراتهم في ميدان الأحساب والأنساب، فهو قادر على قهرهم بقوة الساعد ومضاء السيف، لأن القوة ليس لها نسب ولا لون، وكان عنترة في معظم مفاخراته حريصا على أن يثبت ذاته وحضورها من خلال سرد امجاده التالدة، ووصف قوته وبأسه اللذان لا يشق لهما غبار ولا غرو في ذلك فإثبات الذات قضيته فهو من تعرفه الخيل، والسيوف والرماح وهو من يرتقي من المكارم اعزها واكثرها تأثيرا في النفوس يقول:

فإذا شَربتُ فإننّي مُستهلكٌ مَالي وعرضي وافرٌ لم يكلم
وإذا صحوتُ فما أُقصرُ عن ندى و كما علمتِ شَمَائِلِي وتَكرمِي[55]

وهو بعد ذلك يملك من الخصال ما يجعله يترفع عن مغريات الهوى وسيئات النفس:

إنّي امرؤ سمحُ الخليقةِ مَاجدٌ لا اتبعُ النفسَ اللجوجَ هواهَا[56]

وما من شك أن عقدة الذات المسلوبة التي رافقت عنترة في الشطرين من حياته (العبودية والفروسية)هي من رسخت في ذاته عتابا دائما على الدهر الذي حكم عليه أن يعيش وسط مجتمع لا يسأم تذكر الماضي الذي سلبه هويته واحساسه بالانتماء لعبس التي تنكرت لكل صولاته وجولاته، دفاعا عنها فهي في ذاته قريبة بل اقرب الأقرباء، وهو في ذاتها مجهولا لا يستلزم الاعتراف بوجوده إلا حاجة إذا ما قضاها تفتت كل وعودها له بالزعامة وتصدير الذات يقول:

أعاتِبُ دَهراً لا يَلينُ لِعاتِبِ وَأطلُبُ أمناً مِن صُروفِ النَوائِبِ
وَتوعِدُني الأيّامُ وَعداً يغُرُّني وَأعلَمُ حَقّاً أنَّهُ وَعدُ كاذِبِ
خَدَمتُ أناساً وَاتَّخَذتُ أقارباً لِعَوني وَلَكِن أصبَحوا كَالعَقاربِ
يُنادونَني في السِلمِ يا اِبنَ زَبيبَةٍ وَعِندَ اصطِدامِ الخَيلِ يا اِبنَ الأطايبِ[57]

لقد طرق الشاعر كل ابواب العنف والمغامرة والقوة في سبيل أن يجعل لنفسه وجودا ضمن مجموعته، التي تنكرت له كما تنكرت لكل من كانت امه (أمة سوداء)[58] . فاندفع نحو طريق المخاطر، أملا في الوصول الى رفعة الشأن واثبات الذات:

لولا الهوى ما ذلَ مثلي مثلهُم ولا خضعتْ أسدُ الفلا للثعالبِ
سَيذكرني قَومِي إذا الخَيلُ أصبَحت تجولُ بها الفرسانُ بين المضاربِ
فإن هُم نَسوني فالصوارمُ والقِنا تُذكرهم فعلي ووقعَ مَضاربي[59]

إن مرارة الاحساس بعدم جدوى ما يقدمه لقومه من تضحيات في المحافل وسوح الوغى ظل قابعا في نفسه التي باتت تعاني ألمًا وحزنًا عميقًا، انبثق من ذاته التي تحاول القفز على كل ما من شأنه أن يحجمها ويقيد انطلاقها نحو فضاء الحرية والاحساس بالسمو والرفعة، فها هم قومه لا يفوتون فرصة الانتقاص منه عن طريق تذكيرهم له بضعة نسبه، وبأنه ابن زبيبة الأمة السوداء، الأمر الذي يقوض من مكانته الاجتماعية ويحرمه لذة الشعور بإثبات الذات حتى بعد أن غدا فارس القبيلة الأول، فالفروسية آنذاك لا تغني عن رفعة النسب .ومن منطلق "وداوني بالتي كانت هي الداء" (ديوان ابي نواس). لم يجد عنترة بُدا من أن يصدر ذاته المكلومة من قسوة آخره المجتمعي للتعبير عن وجوده الذاتي، فاتجه نحو الفخر بها وليس بغيرها، فهي من تحمل بين مكنوناتها شرف العزة والإقدام الذي بلغها عنان الثريا، وهي من أقر بوجودها الرمح والحسام ،وهي ادوات عنترة التقليدية في رحلته لإثبات ذاته المنتزعة وهويته المسلوبة، فالرمح والسيف هما سر علو ذاته وترفعها عن آخره القبلي الذي أنكر عليه ذاته ولولا أن:(السواد مرتبط بالعبودية لما احسوا بهذه الفجوة في حياتهم بين اخوتهم البيض الأحرار)[60]. يقول:

إن كنتُ في عددِ العبيدِ فهمتِي فوقَ الثُريَا والسمَاكِ الأعزلِ
او أنكَرت فرسانُ عبسٍ نسبتِي فَسِنانُ رُمحِي والحُسامُ يقرُّ لِي
وبذابلِي ومُهندِي نِلتُ العُلَى لا بِالقرابةِ والعَديدِ الأجزلِ[61]

لقد وقفت عقدة النسب واللون حائلا دون تصالح عنترة مع الآخر المجتمعي الذي تمثله القبيلة، وبالتالي بينه وبين محاولته اثبات ذاته المنتقصة وأناه التي ضاع صدى صوتها بين زحام العادات والتقاليد التي حرمته الوصول لغايته في اثبات ذاته، ولعل ذلك سببا مناسبا للجوئه الى الرمح والسنان بوصفهما عاملا تعويضيا عن الاحساس بهوة انكار الذات من قبل الآخر القبلي الذي تجاهل كل مقاييس السمو والرفعة للذات، متعكزا على شكل حياته الجاهلية التي كانت: (تبعا لحياته الاجتماعية وما تخضع له هذه الحياة من فوارق مادية ومعنوية، لها خطرها في البناء الاجتماعي الجاهلي)[62]. وهو ما شكاه عنترة قائلا:

سَوادي بَياضٌ حينَ تَبدو شَمائلِي وَفعلِي على الأنسابِ يَزهوَ ويَفخَر[63]

لقد تشكلت حياة الإنسان (مغمور الذات) وقد غدت فكرة الظلم هاجسا ملأ نفس صاحبها، تقابله فكرة هاجس اثبات الذات التي كان يسعى اليها عن طريق تذكير قومه بصنائعه وقوة بطشه في ساحات الوغى، داعيا اياهم النظر الى افعاله، لا سواده الذي ناف عليه خبث سريرتهم وسوادها تجاه ذاته المظلومة، فوبخهم قائلا:

أُذكّرُ قَومِي ظُلمهُم لِي وبَغيهَم وقِلة إنّصَافِي عَلى القُربِ والبُعدِ
بَنيتُ لَهُم بالسيفِ مَجدًا مُشيدًا فَلمَا تَنَاهَى مَجدهُم هَدمُوا مَجدِي
يُعيبونَ لونِي بالسّوادِ وإنّما فِعالهُم بالخُبثِ أسودُ مِن جلدِي(64)

ولا يخفى ما في الأبيات من صورة رائعة جسدت احساس عنترة بالجحود القبلي أيما تجسيد، ففي الوقت الذي يحرص فيه على بناء الامجاد التليدة لهم، يقابلونه بهدم ذاته وانكار هويته بينهم لا لشيء إلا لكونه أسود البشرة، وهم في نكرانهم لذاته وسلبهم لهويتها، إنما يماثلون سواد بشرته بل واحلك من ذلك، وقد استعان لتلك الصورة بمقابلة الشيء بضده، ولاسيما لفظتي (البناء والهدم) اللتان عبرتا أيما تعبير عن مدى الألم النفسي الذي خلفه نكرانهم وجحودهم محاولاته اثبات ذاته التي هدمها انتقاصهم منها وطمسهم لهويتها.ويبدو أن معاناة عنترة ازاء عقدة الذات المهمشة أدت به الى إقامة علاقة ود مع هذه الذات عن طريق محاولته الفخر بنسبه العبسي، ومقابلته بنسبه من آل حام لأخواله بين الحين والآخر، ما دام الآخر المجتمعي يأنف منحه حق الاحساس بعلو الذات وطيب همتها، وهو ما سلى به نفسه قائلا:

وأنّا المُجرَبُ في المَواقفِ كُلِها مِن آلِ عبسٍ مَنصبي وَفِعَالِي
مِنهُم ابي شَداد أكرمُ والدٍ والأمُ مِن حَامٍ فَهُم أخوالِي(65)

ويبدو أن قبيلة عنترة تناست أن انتماء عنترة بالنسب الى احد ابرز وجوهها هو ما يعتد به إذا ما اخذنا في الحسبان أن الأصل في النسب يعود الى الأب، فالتفاخر به اولى واجدر وليس للمرء أن يفخر بأخواله إلا بعد أن يفخر بمن هم اقرب اليه بالعصب وهم اعمامه لأبيه، وفي هذا السياق نذكر أن من بين ما عابه النابغة على حسان بن ثابت في حكومته المشهورة بين الأعشى والخنساء وحسان أنه فخر بأخواله ولم يفخر بمن ولده وهم الأعمام في اشارة واضحة الى أن العربي يعتد بنسبه للأب أولا ، ثم الأخوال ثانيا . وقد كان تفاخره بقوميته العربية العبسية رد فعل على كل من حاول الانتقاص من ذاته التي ملكت من الشمائل احسنها ومن سمات الفروسية اقربها للمجد يقول:.

إنّيامرؤمَنخَيْرِعَبْسٍمَنْصِباً شَطْرِيوأحْمِيسَائِرِيبالمِنْصَلِ
إن يَلحَقوا أكرُر وإن يَستلحِمُوا أشدُد وأن يَلْقُوا بِظنّكٍ أنزلِ
حينَ النزولِ يكونُ غَاية مِثْلنا ويفرُّ كُلُّ مُضللٍ مُستوهَلِ
ولقد أبيتُ على الطُوى وأظلُّهُ حتَى أنَالَ بهِ كريمَ المَأكلِ
وإذا الكَتِيبةُ أحْجَمَتْ وتَلاحَظَتْ ألفيتُكُل خَيْرِمنمعُممِعْوَلِ
والخَيلُ تَعلمُ والفَوارسُ أنَّني فَرقّتُ جَمعهُم بِطعنةِ فَيصَلِ(66)

ومما أوغل في نفس عنترة الألم واستثار فيها احساس التهميش الذاتي تعمد اعداؤه ممن غاضتهم شجاعته وانتصاراته عليهم من القبائل الأخرى الاستهزاء بذاته وهويته، بعد أن اعيتهم فروسيته واقدامه في سوح الوغى فكان طمس الهوية والتقليل من شأن الذات وسيلتهم لإحباطه واغاضته، فقد روىابوعمروالشيباني أن بني تميم غزت عبسا وعليهم قيس بن زهير، فانهزمت بنو عبس وطلبتهم بنو تميم،فوقف لهم عنترة ولحقهم كبكبة من الخيل،فحامى عنترة عن الناس، فلم يصب مدبرا وكان قيس بن زهير سيدهم،فساءه ما صنع عنترة يومئذ،فقال حين رجع: (والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء،) فبلغ عنترة ما قاله فقال يعرض به في قصيدته :

بَكَرَتْتُخَوِّفَنِيالحُتُوفكَأنّنِي أصبحْتُعَقْعَرَضِالحُتُوفبَمِعْزِل
فأجبتُهَاإن المَنية مَنهلٌلابُد أن أسقـــى بِكأسِ المَنهلِ(67)

ولأن اسعف عنترة في التعبير عن مدى الصراع النفسي الذي خلفته عقدة اثبات الذات ازاء الآخر المجتمعي احتياج هذا الآخر اليه، فإن الحطيئة لم تتح له الاقدار مثل هذه الصدفة، فقد نشأ في محيط لم يسعفه نفسيا ولا اجتماعيا ولا انسانيا

على تحقيق ذاته واستكمال إنسانيته المسلوبة، ما يفسر كثرة الانتقادات التي وجهت الى سلوكه قديما وحديثا، فقد وصفه الاصمعي بالجشع وكثرة السؤال، ودناءة النفس وكثرة الشر، والبخل فضلا عن قبح المنظر ورثاثة الهيئة وفساد الدين وغمز النسب ،حتى انه ذهب الى ابعد من ذلك في وصفه فقال:(ما تشاء ان تقول من عيب الا وجدته وقلما تجد ذلك في شعره)[68].ويبدو أن الاصمعي تناسى وهو يصف الحطيئة بهذه الصفات الأسباب التي ادت به الى مثل ذلك واهمها الآخر المجتمعي الذي لم يعنه على التكيف مع واقعه، مما افقده فرصة التأقلم مع وسطه المجتمعي الذي سلك سلوكا عدوانيا تجاهه عندما حمله وزر مغموزية نسبه ومعايرته بأمه الضراء التي كانت أمة مهانة لدى سيدها الذي حملت منه سفاحا الحطيئة كما قيل وهو ما عاقبه عليه المجتمع الذي سادته نعرة الجاهلية في تقدير الاحساب والانساب أيما تقدير، فنشأ الحطيئة منذ طفولته وهو مهان بين اقرانه ولاشك: (أنه في طفولته كان يلعب كما يفعل سائر الأطفال مع لداته في نجد موطن بني عبس، ولاشك أنه احس من هؤلاء اللدات امتهانا واحتقارا، إذ كان يأوي بعد اللعب الى هذه الأمة(الضراء) التي كانت تقوم بأعمال الإماء من اعمال البيت ورعي الإبل والغنم ، على حين كان يأوي غيره من اطفال بني عبس الى امهاتهم الحرائر المحصنات، المكرمات)[69].

لقد عاش الحطيئة وقد سلبه الآخر المجتمعي ذاته وهويته ومات على ذلك، فهو بالنسبة لقومه "نكرة" لا يلتفت اليها احد وحتى النكرة إذا ما اضفت اليها احد وسائل التعريف تغدو معرفة مميزة إلا إن الحطيئة ظل مسلوب الذات والهوية،مما خلف في نفسه صراعا محتدما ودائما بين رغبته في اثبات "أناه الأعلى" ، ورفض المجتمع تحقيق ذلك، مما احاله الى شخصية عدوانية يفسرها علم النفس بـــ "الشخصية الانطوائية الوجدانية" التي عانت منذ نعومة أظفارها من شتى انواع العذاب المادي والمعنوي، مما ادى بها الى كبت الكثير من الرغبات التي وقفت حائلا دون تحقيق " الأنا الأعلى" لصاحبها[70].وقد عمق ذلك الواقع وزاد من وطأته في نفس الحطيئة افتقاره للمقومات الجسدية والشكلية التي تعينه على تجاوز ازمته وتعويض احساسه بالازدراء المجتمعي لذاته، فكانت دمامة شكله وقبح هيأته عاملا من عوامل تعميق هذه الفجوة بينه وبين قومه الذين كانوا على ما يبدو على درجة من الصراحة معه في هذا الشأن الى الحد الذي جعله يصل الى مشاركتهم هذا الازدراء والاستهزاء بالذات قائلا:

أبتْ شَفَتايَّ اليومَ تَكلُمَا بشرٍ فَما أدري لِمن أنا قائِله

أرى لِي وَجهًا شَوّهَ اللهُ خَلقهُ فقُبّحَ مِن وَجهٍ وقُبّحَ حامِلُه[71]

ومعلوم أن الوضع الجسمي يعد مثيرا اجتماعيان وان هذا الوضع يفرض توقعات معينة من السلوك فضلا عن أن الوضع الجسمي يعد من أهم المعايير التي تسند الشخص لأداء دور اجتماعي معين ضمن محيطه المجتمعي، وكل هذه العوامل تؤثر بالضرورة على ادراك الفرد لذاته سواء بطريقة مباشرة، او غير مباشرة من خلال مقارنته بالآخرين[72].ولنا أن نتخيل من خلال هذه الأبيات متى الاحباط واليأس الذي التف وطوق ذات الحطيئة،فلعنة نسبه المجهول ودمامة خلقته تسللت تبعاتها الى داخل وعيه،فأفرزت هذه النقمة على الواقع الذي لم يكن مخيرا في استجلابه، ففقده للعلاقات الإنسانية الراقية التي تجمعه بالآخر سواء أكان فردا، او مجتمعا طبع في نفسه شعورا بالنبذ والدونية، حتى وصل هذا الاحساس الى ذاته فهجاها عله يشفي غليل غضبه، مما يفند الرأي القائل بأن هجاء الحطيئة لنفسه ما كان إلا ضربا من المزاح والتسلية للنفس[73].فأي مزاح هذا وقد هجا نفسه وامه وزوجها وحتى اخوته لأمه، ومعهم القبيلة في اكثر من موضع واكثر من مناسبة إذا ما اخذنا في الحسبان أن من هجاهم اصحاب مقامات خاصة في النفس[74].إن تحقيق الذات مطلب انساني فطري، فكل انسان يسعى الى اظهار وجوده وتحقيق القدر الأكبر من حظ النفس بين اترابه وفي مجتمعه، والاحساس بالهوية والرغبة في تحقيق الوجود واظهار الأنا، فكل انسان يحاول أن يعلي من شأنه ما استطاع، وربما يتخذ وسائل ملتوية للتعبيرعن ذاته وتحقيق هويته وهناك طريقتان رئيسيتان لإظهار الهوية: الطريقة الايجابية من خلال تحمل الفرد مسؤوليته نحو نفسه والمجتمع الذي ينتمي اليه من خلال السلوكيات التي يبادرهم بها، لاستجلاب

رضاهم وقبولهم لذاته، وهو ما حاوله عنترة في رحلته لإثبات هويته وذاته المسلوبة، والطريقة السلبية التي تمثل محاولة يائسة لإثبات الهوية والذات المنتزعة وفيها يلجأ الفرد الى العزلة والوحدة واظهار النقمة على الآخر، وهو ما حاوله الحطيئة الذي شق عليه اثبات ذاته المنتزعةمن خلال التفاعل الايجابي مع المجتمع، فلجأ الى المنابذة والعزلة فلا نكاد نعرف له صديقا، او مقربا، فعلاقته بالآخر كانت تحكمها المنفعة التي تنتهي بانتهائها، وقد اطلق اريكسون على هذا السلوك اسم "الاحساس بالهوية"،لأنه يحمل معه السيطرة على مشاكل الطفولة ويحمل استعداد اصليا للمواجهة مع التحديات[75]..وهذا ما حصل مع الحطيئة، فقد واجه معوقات كثيرة في طفولته وحاول أن يكون ندا للكبار متحديا لهم ولكنه لم يفلح فراحت هويته تتشكل بطريقة سلبية تحمل بين جوانبها نقمة صريحة على قبيلته عبس التي سلبته ذاته فراح يهجوها بأقذع الألفاظ قائلا:

قبّحَ الإلهُ قَبيلةً لم يَمنعُوا يومَ المُجيمرِ جَارهُم مِن فَقعسِ
تَركُوا النساءَ مع الجيادِ لمعشرٍ شمسُ العَداوةِ في الحُروبِ الشوسِ
أبلِغْ بَني عبس بأنَّ نجارهُم لؤمٌ وأنّ أبــاهُم كالهَجرَسِ
يُعطي الخَسيسةَ راغمًا مَن رَامَهُ بالضَيــمِ بَعدَ تَكــلُّحٍ وتَعبسِ[76]

وهذه الأبيات هي جزء من قصيدة افتتحها الحطيئة بهجاء أمه الضراء، فجمع فيها بين علتي خذلانه الذاتي (الام والعشيرة)، مما ينبئ عن مدى الجو النفسي المشحون بهواجس الألم والنقمة ازاء الرفض المجتمعي لوجوده، وهو رفض يعود في اسبابه الأولى للأم والأب اللذان حرماه حق النسب الصريح، والهوية الفاعلة بين افراد الآخر المجتمعي الذي ناصبه هو الآخر العداء فسلبه حق الانتماء اليه، مما يفسر عزوف الحطيئة في كثير من الاحيان عن التمسك بهذا الانتماء القبلي المجتمعي إذ كان دائم التنقل بالنسب بين القبائل، فهو يدعي مرة انتسابه لبني ذهل قائلا:

لأمدَحنَّ بِمدحَةٍ مَذكُورةٍ أهلَ القُريَّةِ مِن بَني دُهلِ
الضَامنينَ لِمَالِ جَارهِم حَتى تتمَّ نواهضُ البَقــلِ
قَومٌ إذا نُسبُوا، فَفرعهُمُ فرعِي، وأثبَتَ أصلُهُم أصلِي[77]

حتى إذا ما تنكروا لذاته ووجوده بينهم، عزف عنهم الى غيرهم من بني بكر بن وائل قائلا:

قَومِي بَنو عمرو بن عَــو فٍ إن أرادَ العِلمَ عالمْ
قومٌ إذا ذهبتْ خضا رِمُ مِنهمُ خُلقَتْ خضارمْ
لا يَفشلــونَ ولا تَبــت عَلــى أنوفِهم الخواطمْ[78]

ويبدو أن تنقل الحطيئة بالنسب بين القبائل يعود الى رغبته الدفينة في اشباع عقدة اثبات الذات المسلوبة التي عمقها في نفسه تنكر الآخرين لها، فكانت غايته في كسب الهوية واثبات الذات المهمشة اكبر من غاية التكسب المادي الذي يرجوه من جراء مدح هذه القبائل، عله يجد من يمد له يد العون من تلك الأقوام التي أبت منحه ذاتا واضحة الانتماء القومي ومنحه هوية تكسبه كيانا معروفا بين افراد المجتمع يستطيع ان يتجاوز من خلاله عقدة الذات المسلوبة التي نغصت عليه حياته وشحنته بمختلف صنوف السلوك العدائي تجاه نفسه ومجتمعه وهو ما عبر عنه قائلا:

ألا مَن لِقلبٍ عَارمِ النَّظَراتِ يَقطعُ طُولَ الليْلِ بالزَّفراتِ
إذا مَا الثُريَا آخرَ الليْلِ أعنقَتْ كَواكبُهَا كَالجزعِ مُنحَدِرَاتِ
هُنالِكَ لا أخشَى مَقالةَ قائِلٍ إذا انتبَذَ الغُرابُ في الحَجراتِ
لعمري لقد جَرَّبتُكُم فَوجدتُكُمْ قِبَاح الوجُوهِ سَيّئَى العَذِراتِ[79]

ومنها قوله ايضا:

وَجدتُكُمُ لم تُجبروا عَظمَ مُغرمٍ ولا تنحرونَ النيبَ في الحجراتِ
فإن يَصطنِعنِي اللهُ لا أصطنِعُكُمُ ولا أوتيكم مَالِــي عَلى العثراتِ[80]

ففي هذه الأبيات زفرات خرجت من نفس الحطيئة وقد اوقد حرقتها في نفسه ألم التهميش والاقصاء المجتمعي الذي فرض عليه فرضا، فسلبه حق اثبات الذات فما كان منه إلا أن يماثل عقوق آخره المجتمعي بعقوق اقوى منه واشد وطأة في النفس، فهذا المجتمع الذي رفضه ذاتا مستقلة يضم بين افراده من هم قباح الوجوه دميمي الخلقة وهم في صفاتهم المعنوية (أسوء من الغادرين فهو لم يصفهم بالعذر بل وصفهم بأسوء مراتب العذر)[81]. وقد قصد قصدا المزاوجة في هجائه قومه المزج بين عيوبهم الخُلقية والخَلقية، ليصرف الانظار عنه فهو يعاني من عيوب جسدية وأخرى مماثلة في النسب، وكأنه يخبرهم ضمنا بأنه ليس وحده من يعاني سوء الأمرين، فهم مثله في ذلك إن لم يكونوا أسوء منه. هذا الموقف المتعنت من قبل الآخر المجتمعي ازاء ذات الحطيئة وهويته كان موقفا ثابتا بل ومتجددا وقد فرض على الحطيئة وذاته المسلوبة، فكان من نتاج ذلك الجحود المجتمعي ان بقي:(مشتتا من خلال الانتقال من قبيلة لأخرى، وكأنه خلق دون هوية وهذا ما زاد حالته سوءا واسودادا وتشاؤما) [82]. وهذا ما نعتذر به لما ورد في شعره من قساوة اللفظ وسوء الطبع، ذلك أن لكل فعل رد فعل يوافقه في القوة ويعاكسه في الاتجاه.

Abstract

The stolen self

Antara and Al-Hutay'a balancing vision

By Esraa Tarik Kamel Mohammed Al Ghurairi

Arabic literature, with its two parts, poetic and prose, was and still is a rich material with many literary and critical propositions. Its features are clear in Antarah and Al-Hutay'a, the two poets who came close in one aspect of their social and psychological conditions, and separated in another aspect of them, which left its impact on their poetic production, which reflected in a large part of its aspects a psychological complex represented by the feeling of stripping the self from its existence, as a human entity. Completely, the other, with its cruelty, robbed it of this human orientation, and this theme was the source of inspiration for them in their orientation towards addressing this other in all its forms, which vented out their selves, both negatively and positively. Our means for this is their poems that revealed their inner selves in relation to this other, and that negative self.

الهوامش:

(1) ينظر المعتمد بن عباد دراسة نفسية،محمد خيط، دراسة ماجستير، جامعة الاخوة منتوري، قسنطينة، 2004/ 2005 ص: 58 .

(2) ينظر سيكولوجية مفهوم الذات، د. سول ماكلاود، ترجمة علي عبد الرحيم صالح، بحث منشور في مؤسسة علوم النفس العربية ، د.ت، ص:1.

(3) ينظر فاعلية اسلوب الدمج على مفهوم الذات والسلوك التكيفي لدى الاطفال المتخلفين عقليا القابلين للتعلم، اميرة طه بخش، بحث منشور في مجلة كلية التربية، الاسكندرية، 1999، ص:4.

(4) المصطلحات الادبية الحديثة دراسة ومعجم انجليزي عربي، د.محمد عناني، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، دار نوبان للطباعة،ط3، 2003، ص: 68.

(5) ينظر صورة الاخر عند الشعراء السود في العصر الجاهلي والاسلامي، أ.د. عهود حسين جبر، مركز دراسات الكوفة ، جامعة الكوفة، 2019، ص: 60.

(6) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق احمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، 1958: 1/ 204)

(7) عقد الشعراء النفسية وآثارها افي الشعر الجاهلي، شيماء زاحم، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2015، ص: 37.

(8) ديوان عنترة ، تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، لبنان، بيروت، 1970، ص: 326.

(9) م. ن ، ص: 329 330.

(10) م.ن، ص:332.

(11) م.ن، ص:270 271.

(12) ديوان الحطيئة، تحقيق نعمان محمد امين طه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1987، ص:334.

(13) ينظر الحطيئة في معيار النقد قديما و حديثا، بان حميد فرحات الراوي، دار دجلة ، عمان، ط1، 2008، ص:182.

(14) فن الهجاء وتطوره عند العرب، ايليا حاوي، 132

(15) ديوان الحطيئة، ص:333.

(16) م.ن، ص:

(17) بنية الصورة الفنية في شعر الحطيئة، سمية عبد الهادي، رسالة ماجستير، جامعة المسيلة،2007 2008،ص: 47.

(18) ينظر الاغاني، للاصفهاني:432/3

(19) سيرة عنترة بن شداد، السيرة الحجازية،ط4،المكتبة السعيدية، 1331هـ

(20) الشعراء السود وخصائصهم في الادب العربي، د. عبدة بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988، ص:36.

(21) اللون وابعاده في الشعر الجاهلي شعراء المعلقات أنموذجا رسالة ماجستير ،امل محمود عبد القادر،فلسطين 2003، ص: 32

(22) ديوان عنترة ،ص:246

(23) م.ن، ص:341

(24) م.ن،ص:213

(25) ينظر قصيدة حكم سيوفك في رقاب الذل دراسة اسلوبية كواكب كريم غفور،Journal of University of Garmian، 163، 2019).

(26) ديوان عنترة،ص:339 340.

(27) الحزن بين البواعث والاثار في شعر ما قبل الاسلام ، بخشان رحيم ،رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2006،ص: 157.

(28) ديوان عنترة،ص:321

(29) م.ن،ص:542

(30) م.ن،ص:321

(31) م.ن،ص:216

(32) م.ن،ص:352

(33) الاغاني، للاصفهاني:1/ 431

(34) جمهرة النسب،، لابي منذر بن هشام الكلبي، تحقيق د. ناجي حسن،مكتبة النهضة، بيروت،ط1، 1986،ص:93.

(35) ديوان الحطيئة،ص:432

(36) م.ن،ص:231

(37) الهجاء وتطوره عند العرب، ايليا حاوي،ص: 132

(38) ينظر بنية الصورة الفنية،ص:44.

(39) ديوان الحطيئة،ص:324

(40) الاسرة واساليب تربية الطفل، وفيق صفوت مختار، دار العلم للثقافة، القاهرة، ط2004،1، ص:35.

(41) ديوان عنترة،ص:165.

(42) م.ن،ص:187.

(43) ديوان الحطيئة،ص:236.

(44) ينظر مدخل الى الشعر الجاهلي دراسة في البيئة والشعر، محمد زغلول سلام، ، المعارف، الاسكندرية، د.ط، د.ت، ص:170

(45) ديوان الحطيئة،ص:265

(46) ينظر فن الهجاء ايليا حاوي، ص: 135.

(47) ينظر الاسرة واساليب تربية الطفل، ص: 271.

(48) ينظر فن الهجاء وتطوره،ص:136.

(49) علم النفس الاجتماعي، عبد الحافظ سلامة، دار البازوري للنشر و الطباعة، عمان، الأردن، ، 2007 ، ص: 82.

(50) ديوان عنترة،ص:176

(51) م.ن،ص:422

(52) ديوان الحطيئة،ص:183

(53) م.ن،ص:231

(54) م.ن،ص:268

(55) ديوان عنترة،ص:177

(56) م.ن،ص:285

(57) م.ن،ص:43

(58) ينظر شعر تأبط شرا، تحقيق سليمان داود القرغولي وجبار تعبان جاسم ، مطبعة الآداب، النجف الاشرف، ط1، 1973، ص:19.

(59) ديوان عنترة، ص:211.

(60) الغزل عند الشعراء السود، فوزية زنباري، رسالة ماجستير، الجامعة اليسوعية، بيروت، ص: 175

(61) ديوان عنترة،ص:135

(62) الشكوى في الشعر العربي ، ظافر عبدالله، رسالة ماجستير، جامعة ام القرى، 1990، ص: 103

(63) ديوان عنترة،ص:311

(64) ديوان عنترة،ص:32

(65) م.ن،ص:186

(66) م.ن،ص: 176 ينظر ايضا مظاهر القهر الانساني في الشعر الجاهلي،رباح عبدالله علي، رسالة ماجستير، جامعة تشرين،ص: 33.

(67) ديوان عنترة،ص:233

(68) الاغاني : 2/ 163

(69) الحطيئة البدوي المحترف، درويش الجندي، مطبعة الرسالة، مصر ، ط1، 1962، ص: 71

(70) وجه الحطيئة مرايا الاتهام والبراءة، علي هصيص،عالم الثقافة للنشر والتوزيع،2010،ص59.

(71) ديوان الحطيئة،ص:174

(72) سيكولوجية الاطفال غير العاديين،فتحي السيد وحليم السعيد ،ج 1، ط2، دار القلم ،الكويت،1982، ص: 28ــ 29.

(73) تاريخ الادب العربي العصر الاسلامي، شوقي ضيف، 99

(74) وجه الحطيئة علي هصيص،ص: 59.

(75) علم نفس النمو ، هدى قناوي وحسن مصطفى، القاهرة، دار قباء 2001، ص 290.

(76) ديوان الحطيئة،ص:63

(77) م.ن،ص:198

(78) م.ن،ص:274

(79) م.ن،ص:322

(80) م.ن،ص:282

(81) الفاظ الهجاء عند الحطيئة دراسة ومعجم، زينب النعيمي وآخرون،مجلة آداب المستنصرية، ع 53، 2009،ص 10.

(82) م.ن، ص: 81

المصادر والمراجع

1. الاسرة واساليب تربية الطفل، وفيق صفوت مختار، دار العلم للثقافة، القاهرة، ط2004،1.
2. (2)الاغاني، تأليف ابو الفرج الاصفهاني، دار ومكتبة الهلال، 2000.
3. تاريخ الادب العربي العصر الاسلامي، شوقي ضيف، دار المعارف ، مصر، ط7، 1963.
4. جمهرة النسب،، لابي منذر بن هشام الكلبي، تحقيق د. ناجي حسن،مكتبة النهضة، بيروت،ط1، 1986،ص:93.
5ــ الحطيئة البدوي المحترف، درويش الجندي، مطبعة الرسالة، مصر ، ط1، 1962، .
6ــ الحطيئة في معيار النقد قديما و حديثا، بان حميد فرحات الراوي، دار دجلة ، عمان، ط1، 2008، ص:182.
7ــ ديوان الحطيئة، تحقيق نعمان محمد امين طه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1987.
8ــ ديوان عنترة ، تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، لبنان، بيروت، 1970
9ــ سيرة عنترة بن شداد، السيرة الحجازية،ط4،المكتبة السعيدية، 1331هـ.
10ــ سيكولوجية الاطفال غير العاديين،فتحي السيد وحليم السعيد ،ج 1، ط2، دار القلم ،الكويت،1982.
11ــ شعر تأبط شرا، تحقيق سليمان داود القرغولي وجبار تعبان جاسم ، مطبعة الآداب، النجف الاشرف، ط1، 1973
12ــ الشعراء السود وخصائصهم في الادب العربي، د. عبدة بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988.
13ــ الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق وشرح احمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، 1958.
14ــ صورة الاخر عند الشعراء السود في العصر الجاهلي والاسلامي، أ.د. عهود حسين جبر، مركز دراسات الكوفة ، جامعة الكوفة، 2019.
15ــ علم النفس الاجتماعي، عبد الحافظ سلامة، دار البازوري للنشر و الطباعة، عمان، الأردن، ، 2007.
16ــ علم نفس النمو ، هدى قناوي وحسن مصطفى، القاهرة، دار قباء، 2001.
17ــ فن الهجاء وتطوره عند العرب، ايليا حاوي،دار الثقافة للنشر والتوزيع،لبنان،1998.
18ــ قصيدة حكم سيوفك في رقاب الذل دراسة اسلوبية كواكب كريم غفور،Journal of University of Garmian، 163، 2019).
19ــ مدخل الى الشعر الجاهلي دراسة في البيئة والشعر، محمد زغلول سلام، ، المعارف، الاسكندرية، د.ط، د.ت.
20ــ المصطلحات الادبية الحديثة دراسة ومعجم انجليزي عربي، د.محمد عناني، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، دار نوبان للطباعة،ط3، 2003.
21ــوجه الحطيئة مرايا الاتهام والبراءة، علي هصيص، عالم الثقافة للنشر والتوزيع،2010،ص59.

الرسائل والأطاريح

1. بنية الصورة الفنية في شعر الحطيئة، سمية عبد الهادي، رسالة ماجستير، جامعة المسيلة،2007 2008.
2. الجاهلي شعراء المعلقات أنموذجا رسالة ماجستير ،امل محمود عبد القادر،فلسطين 2003.
3. الحزن بين البواعث والاثار في شعر ما قبل الاسلام ، بخشان رحيم ،رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2006.
4. الشكوى في الشعر العربي ، ظافر عبدالله، رسالة ماجستير، جامعة ام القرى، 1990.
5. عقد الشعراء النفسية وآثارها افي الشعر الجاهلي، شيماء زاحم، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2015،.

6. الغزل عند الشعراء السود، فوزية زنباري، رسالة ماجستير،الجامعة اليسوعية، بيروت،د.ت

7. المعتمد بن عباد دراسة نفسية،محمد خيط، دراسة ماجستير، جامعة الاخوة منتوري، قسنطينة، 2004/ 2005 ص: 58 .

8. مظاهر القهر الانساني في الشعر الجاهلي،رباح عبدالله علي، رسالة ماجستير، جامعة تشرين،د.ت.

البحوث المنشورة

1. الفاظ الهجاء عند الحطيئة دراسة ومعجم، زينب النعيمي وآخرون، مجلة آداب المستنصرية، ع 53، 2009،.

2. فاعلية اسلوب الدمج على مفهوم الذات والسلوك التكيفي لدى الاطفال المتخلفين عقليا القابلين للتعلم، اميرة طه بخش، بحث منشور في مجلة كلية التربية، الاسكندرية، 1999.

(5)ينظر سيكولوجية مفهوم الذات، د. سول ماكلاود، ترجمة علي عبد الرحيم صالح، بحث منشور في مؤسسة علوم النفس العربية ، د.ت،.